الثورة الجزائرية في فكر فرانز فانون

The Algerian revolution from frans fanon thought

أ.د. صالح الدين ملفوف/* Melfouf Saleh Eddine

أستاذ التعليم العالي، جامعة الجيلالي بونعامة –خميس مليانة

Melfouf.2012@gmail.com

تاريخ الإرسال:2021/01/20 تاريخ القبول: 2021/04/29. تاريخ النشر: 2024/01/29

ملخص: تسعى هذه الورقة البحثية، الموسومة بعنوان: الثورة الجزائرية في فكر فرانز فانون، إلى إماطة اللثام عن كتابات هذا المفكر، وأهميتها لكل من رفعوا، أو كانت لهم نية رفع السلاح، في وجه من احتلهم، واستباح أرضهم وعرضهم، بدءا بمقالاته المتسلسلة في جريدة (المجاهد)، تحت عنوان: المثقفون والديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية، مرورا بكتاب: (العام الخامس للثورة الجزائرية)، وصولا إلى: (معذبو الأرض)، بوصفه آخر ما أنتجت قريحته. كما تسعى، إلى كشف الستار عن تأثير ثورة التحرير الجزائرية، في كتابات هذا المناضل، ذلك أن أغلب الذين تناولوا كتابات فرانز فانون، قد ركزوا على تأثير كتاباته في الثورة والثوار، وأهملوا في المقابل، تأثيرها هي في فكره وكتاباته.

الكلمات المفتاحية: الثورة، الفكر، التحرر، النضال، الوطنية.

Abstract : *This paper entitled The Algerian Revolution in Frantz Fanon Thoughts aims at unveiling this thinker's writings and their importance to those revolutionaries with arms against the colonizer, mainly the value of his successive articles in El Mudjahid newspaper. These articles entitled: The French Intellectuals and Democrats in front of the Algerian Revolution moving to his book : A Dying Colonialism and then his book The Wretched of the Earth. This paper seeks also revealing the impact of the Algerian Revolution on Fanon's writings as most writings on Fanon emphasized his writings' influence on the Algerian Revolution and revolutionaries and neglect the impact of this Revolution on his thoughts and thoughts.*

Key- words : *Revolution, Thoughts, Liberation, Militantism, Nationalism*

مقدمة:

*المؤلف المرسل

يعد الطبيب الفرنسي فرانز فانون –ذو الأصول المارتينيكية– واحدا من المناضلين الذين عايشوا ثورة التحرير الجزائرية، وتشبعوا بأفكارها، واستماتوا في الدفاع عنها، وقد كان لهذه الثورة، عميق الأثر في فكر هذا الأخير ومؤلفاته، ومما يؤكد هذه الحقيقة، أن أجود مؤلفاته السياسية، كُتِبَتْ إبَّان حرب التحرير الوطنية، ناهيك عن أن نضاله في إطار جبهة التحرير الوطني، هو الذي جعله يكتشف خبايا المشاكل، التي كان يعاني منها العالم الثالث، ثم بفضل الصفة التمثيلية لجبهة التحرير التي كان يتمتع بها، استطاع أن يتعرف على التجارب الثورية، في إفريقيا أولا، وفي آسيا، وأمريكا اللاتينية ثانيا، ومنه فإن تأثير الثورة في فكر هذا المناضل، لا يعدمه إلا جاحد أو جاهل، وهذا ما سنحاول الكشف عنه في هذا المقام.

1. وفاء لفرانز فانون وفكره:

لن أسترسل في الحديث عن مولد، أو أصل هذا المفكر والمناضل، ولكن يكفيني القول، إنه حفيد أولئك الرقيق، الذين حُمِلُوا منذ قرون إلى جزر الأنتيل من إفريقيا. وكانت المارتينيك تشكل – مع جزر الأنتيل الصغرى يومئذ– منطقة شملتها السيطرة الفرنسية، منذ القرن السابع عشر للميلاد، وظل أبناء الأفارقة الذين استقروا بالجزيرة، يعانون من الاضطهاد، ويقومون من حين لآخر، بثورات تُقْمَعُ بشدة، ومع قيام الجمهورية الثالثة، وظهور النظريات الاندماجية، راح السكان يحلمون بالمساواة المطلقة مع الأوربيين، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، التي ساهم فيها سكان المارتينيك، إلى جانب سكان جميع المستعمرات الفرنسية، اتُّخِذَتْ بعض التدابير، الهادفة إلى إيجاد نوع من التقارب السطحي، بين سكان المارتينيك وسكان الوطن الأم، خلال هذه الحقبة من حياة الجزيرة، وُلِدَ فانون. [i]

مع تردُّد فانون على المدرسة الفرنسية، تعزز نفوره من اللهجة المحلية، وانفتحت عيناه على القيم البيضاء، ممثلة في أبطال، من أمثال: "شارلمان"، و"جان دارك"، و"لامارتين"، لكن هذا الوضع دخل عليه تغيير مع قيام الحرب العالمية الثانية، بفعل وجود عدة عوامل، وصفها فانون بشيء من الإسهاب، في مقال نُشِرَ في مجلة "اسبري" الفرنسية عام 1955م، ولأن هذا المقال، يتناول بالتحليل

حقبة كانت حاسمة في توجيه فانون سياسيا وفكريا، فإننا نستطيع أن نعده ضربا من السيرة الذاتية، كتبها للكشف عن تطوره الفكري، إلى غاية التاريخ المشار إليه آنفا، «إذن، فقد غَيَّرَ الأنتيلي بعد 1945م، القيم التي كان يتمسك بها، فبينما كانت قبل 1939م، تتركز نظراته على أوربا البيضاء، وبينما كان الخير في نظره، هو الهروب خارج لونه، اكتشف في 1945م أنه أسود، بل وأصبح يتطلع نحو إفريقيا البعيدة، كان الأنتيلي قبل 1945م، يعمل دائما على التذكير بأنه ليس زنجيا، وابتداء من 1945م، أصبح الأنتيلي بفرنسا، يعمل دائما على التذكير بأنه زنجي.»[2].

طيلة عشرين سنة، تردد اسم فانون بصورة ما فتئت تتوسع، فإذا كان أول كتاب له ظهر سنة 1952م، قد مكنه من احتلال مكانة محترمة بين المثقفين الفرنسيين، فإن آخر كتاب له، قد سجل ارتفاعه إلى مستوى عالمي، إذ جعل كل المضطهدين في الأرض، يتعرفون على أنفسهم من خلاله، وما لبث أن تطور (معذبو الأرض)، من مجرد صرخة في وجه الغرب الاستعماري، إلى كتاب ثوري جديد، يحتضنه كثيرون، في تَعَلُّقٍ يُذَكِّرُ بحماس القبائل البدائية لمعتقدات الأسلاف.

مما لا شك فيه، أن جميع من اشتغلوا على كتابات فانون، قد اتفقوا على أن اسمه وفكره، قد اقترن بكفاح الشعوب المضطهدة، وبصراع العالم الثالث عبر الثورة الجزائرية، وقد كان لقاء فانون بالثورة الجزائرية، عاملا أساسيا في تعقيد المهمة، أمام كل باحث في شخصية فانون وفكره، وزاد في تعقيد هذه المهمة، مجموعة من العوامل، أبرزها: أن معظم الذين كتبوا عن فانون، لم يكونوا مطَّلعين على تاريخ الحركات الوطنية في الجزائر، واتجاهاتها الفكرية، مما ترتب عنه، الغفلة عن ربط ثورة نوفمبر بالجذور الفكرية التي تستند إليها، مما أدى إلى عدم العناية باكتشاف الخط الفكري لثورة الجزائر المظفرة، كما أن كثيرا من الذين بحثوا في فكر فانون، ركزوا على كتاباته التي ظهرت في ظل الثورة الجزائرية، وبالتالي غفلوا عن إجراء مقارنة علمية وشاملة، بين ما كتبه قبل انضمامه للثورة الجزائرية، وبين ما كتبه بعد انضمامه لصفوف جبهة التحرير الوطني، ونتيجة لذلك، اعتبرت كتاباته خلال حرب التحرير-في نظر كثيرين- هي البداية وهي النهاية التي توصل فكر فانون.

أدت العوامل المشار إليها سابقا، إلى ترويج فكرة أثر فانون الحاسم في الثورة الجزائرية، حتى أن هناك من اعتبره، هو منظر الثورة الجزائرية ومفكرها، بل أن هناك من الباحثين الغربيين، من بالغ في

تضخيم دور فانون، وتأثيره على مجرى الثورة الجزائرية، إلى درجة القول بأن إقامة فانون بعض الوقت بين إطارات الجيش في الحدود، كانت حاسمة في فصل النزاعات التي نشبت بالجزائر إبان الاستقلال، أو أنه كان من رجال أول نوفمبر، أو أنه هو الذي وضع برنامج وادي الصومام، وهذه التأكيدات جعلت صورة فانون، تقترب أكثر فأكثر من التضخيم وتبتعد عن الحقيقة*.

ومهما يكن من أمر، فنحن لا ننكر وجود أي تأثير لفانون في الثورة الجزائرية، فتأثير فانون موجود وقائم، لكن الحقيقة التي بقيت حتى الآن في الظل، والتي يهمنا الكشف عنها في هذه الورقة البحثية، هي مدى تأثير الثورة الجزائرية في فانون، وفي تطور فكره. ولكي نفهم مدى التأثير الذي أحدثته الثورة الجزائرية في نفسية فانون وفي تفكيره، لابد من قراءة كتاباته حسب صدورها أولا بأول، فمثل هذه القراءة ضرورية لملامسة هذا التأثير أولا، ولكي نعرف مداه ثانيا، ولكي نستجلي بعد هذا وذاك، المراحل المختلفة التي مر بها تفكير فانون منذ 1952م إلى 1961م، أي منذ صدور كتابه الأول، إلى حين صدور كتابه الأخير، مرورا بكتاباته في (المقاومة الجزائرية)، وفي (المجاهد) ابتداء من سنة 1957م.

2. فانون ما قبل الثورة:

إن القراءة التي تراعي التسلسل التاريخي، ضرورية لتتبع المنحى البياني لتفكير هذا المناضل، خصوصا أن القدر المشترك من العنف في كتاباته، قد يجعل الأمر يختلط على الدارسين، ونجد أنفسنا عاجزين، عن تصنيف ألوان العنف عنده من جهة، ولا نحاول من جهة أخرى، تبين المواقف الفكرية، التي تختلف وتتناقض أحيانا من مرحلة لأخرى.

لقد أثبتت كتابات فانون الأدبية الأولى: (العين الغريقة)، و(الأيدي المتوازية)، و(المؤامرة)، توجهه المناهض للعنصرية الاستعمارية، والذي عاد عليه بإعجاب الطبقة الفرنسية المثقفة، لكنه ما إن نشر أولى نصوصه غير الأدبية في مجلة Esprit سنة 1951م، بعنوان: (التجربة المعاشة لزنجي)، حتى انفتحت عليه أبواب النقد من كل حدب وصوب، وانقلبت تلك الحفاوة، إلى عنصرية مقيتة، كشفت الكثير من الحقائق المستورة.

لم يتأثر فانون، بتلك الحملة العنصرية التي شُنَّتْ ضده، وراح يرفع من نبرته النضالية، التي تَوَّجَهَا بعد أشهر قليلة، بكتابه: (بشرة سوداء، أقنعة بيضاء)، الصادر عن دار Seuil سنة 1952م، ولم يكتف فيه بنقد التوجه العنصري المسلط على سكان المستعمرات، بل جاهر بفضح فكر الاستعمار اللغوي والثقافي، الطاغي في الأوساط الثقافية الباريسية، الشيء الذي كرس القطيعة النهائية بينه وبين مثقفي فرنسا، حتى أنه كتب سنة 1953م، قبل المغادرة إلى الجزائر: «إن أدغال أمريكا الجنوبية تُعَدُّ، بالنسبة إلى زنجي مثلي، ألطف بكثير من مقاهي سان جيرمان.».

أول ما يلاحظه القارئ لكتاب (بشرة سوداء، أقنعة بيضاء)، هو حيرة فانون، أمام الحلول المقترحة آنذاك لتسوية المشكل العنصري، الذي يعاني منه وشعبه، والمعزز بمشكل استعماري، فقد كان أمامه اتجاهان: إما العمل بجميع الوسائل على أن يصبح رجلا أبيضا، وإما أن يتغنى بسواد بشرته، ويقيم الدليل على تفوق القيم الزنجية، والرفض المطلق للقيم البيضاء، وقد جعلته هذه الحيرة، بين المصير الأبيض المستحيل، والمستقبل الأسود الغامض، يصرخ قائلا:«لم أصبح بعد أبيضا تماما، ولم أعد زنجيا تماما، فأنا مسحوق.».

إن المصير الأبيض المحتوم، يجعل من فانون ثائرا على الأوضاع القائمة، رافضا التسليم بها، والرضوخ إليها، داعيا إلى نبذها وتغييرها، فلون بشرته يذكره دائما أنه ليس أبيضا، وتصرفات البيض انطلاقا من لومه تؤكد ذلك، يقول في هذا الشأن:«في القطار بدل أن يتركوا لي مكانا أجلس فيه، يتركون لي مكانين بل ثلاثة أمكنة... إذن فوجودي مضاعف ثلاث مرات. أمثل مكانا كبيرا. وهكذا، نظرا لحيرتي وعجزي عن أن أكون في الخارج مع الآخر، مع الأبيض الذي يأسرني بدون هوادة، أذهب بعيدا عن كينونتي هذه بعيدا جدا لأصبح شيئا.»[3].وإذا كان اليهودي يتعرض في الماضي للتمييز العنصري بأوربا، فإن مشكلة فانون الزنجي أكبر بكثير من مشكلة هذا اليهودي، يقول فانون:«إن اليهودي يصبح غير محبوب ابتداء من وقت التعرف عليه. أما بالنسبة إلي فليست لي أية فرصة في أن أمر دون أن أعرف. أنا محدد من الخارج، فأنا لست عبدا للفكرة التي يحملها الآخرون عني، لكني عبد لصورة ظهوري.»[4].

إن طبيعة الموقف الذي تبناه فانون هذه المرحلة، لا يعدو أن يكون ثورة فردية، لم تتبلور إلى حركة شعبية، أو موقف قومي، لأن المارتينيكي من منظور فانون: «"فرنسي"، وهو يريد أن يظل داخل الاتحاد الفرنسي. إن المارتينيكي لا يطلب إلا شيئا واحدا: هو أن يترك المستغلون والبلداء له الحرية في أن يحيا إنسانا.»[5]. هنا، لا يطرح المفكر قضية العنف، من زاوية التمييز بين أبناء المستعمرات وأبناء الوطن الأم، ولكن من زاوية مكانة الفرد المستعمَر (بالفتح)، داخل الوطن الفرنسي بمعناه الأوسع، في حدود ما كان يسمى بالاتحاد الفرنسي، أي بمعناه الاستعماري الكولونيالي.

إن شغل فانون الشاغل هنا، ليس هو كفاح شعبه من أجل الاستقلال الوطني، ولكن هو كفاح الفرد الأنتيلي، من أجل حياة أفضل في نطاق الاتحاد الفرنسي، ففانون هذه المرحلة، لم يفكر أبدا في الثورة على الاستعمار الفرنسي، بوصفه جهازا متضامنا، بكل أشكاله وأطيافه، السياسية، والاقتصادية، والثقافية، وإنما كان ينظر إليه من زاوية طبقية، في نظره مجرد وضع طبقي، يقف فيه العامل المارتينيكي، جنبا إلى جنب مع العامل الفرنسي ضد البرجوازية والبرجوازيين، وعلى هذا الأساس يؤكد قائلا: «إني أتصور نفسي عن طيب خاطر مندمجا ومعمورا بالموجة البيضاء التي يشكلها رجال من أمثال سارتر وأراغون، ولن أطلب شيئا آخر غير ذلك»[6].

كان انتقال فانون إلى الجزائر سنة 1953م، نقطة تحول مفصلية في تجربته الفكرية والنضالية، ففي منطقة المتيجة، اكتشف الطبيب النفساني ظلم الاستعمار، حين أطلق أيدي المعمرين الأوربيين، لتسخير السكان الأصليين كعمالة محرومة من أبسط الحقوق، وهنا بدأ التجسيد للمرحلة الانتقالية، التي كان يمر بها فانون، من التفكير في إطار استعماري صريح، إلى التفكير في إطار مناهض للاستعمار مناهضة كلية، هنا اندلعت ثورة التحرير الجزائرية في نوفمبر 1954م.

3.فانون الثورة وأثناءها:

لم يكن ممكنا، أن يستمر فانون في تمسكه بالإطار الفرنسي، بعد قيام الثورة الجزائرية، خاصة بعد أن رأى بأم عينيه، تسليح المدنيين الأوربيين، ومساهمتهم في العمل ضد الثورة ! نعم، جميع الأوربيين وهم أكثر من مليون، بما فيهم العمال، وصغار التجار، والحرفيون، وعمال المزارع، يطالبون

بمزيد من الشدة والقمع، فأين هو ما كان يعتقده فانون، وما كان يعتقده اليسار، من وجود تضامن طبقي بين العامل الأهلي والعامل الأوربي؟... شيء ما في تفكير اليسار ليس على ما يرام.

لم يكن من محض الصدفة، أن تكون أول دراسة نظرية مطولة قام بها فانون –بعد تفرغه للعمل في صفوف الثورة بصفة عامة وللتحرير في "المجاهد" بصفة خاصة– سلسلة مقالاته التي اختار لها عنوان: المثقفون والديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية[7].صحيح أنه كتب من قبل ذلك مقالات أخرى، لكن معظمها كان عبارة عن تعليقات آنية، أو افتتاحيات ظرفية، وباستثناء مقال (حقيقة وأوهام الاستعمار الفرنسي)، ومقال (الجزائر أمام الجلادين الفرنسيين)[8]، فإن بحثه عن اليسار الفرنسي، الذي نشر على ثلاث حلقات، في الأعداد الصادرة بتاريخ أول، و15، و30 ديسمبر 1957م ،يعد أول بحث هام يعيد النظر في اليسار الفرنسي، الذي كان فانون ينتمي إليه، ويسجل بداية ثورته ضد المفاهيم، التي كان يؤمن بها حتى ذلك الوقت، ويعكس اندماجه في الثورة الجزائرية، وبدايات شعوره بالانتماء إلى حركة متمايزة، ومتكاملة، ومستقلة، وليست مجرد تيار يقف ضد تيار.

إن كثيرين ممن كتبوا عن فانون، قالوا بتأثيره الفعال في الثورة الجزائرية، وفي توجيهها نحو ذلك الاتجاه الراديكالي الصلب، في حين أن استعراض علاقة فانون باليسار الفرنسي، قبل حرب التحرير من جهة، واستعراض علاقة هذا اليسار مع الحركات الوطنية الجزائرية من جهة ثانية، كفيل بأن يظهر لنا أن التأثير هنا كان يسير في اتجاه معاكس، أي أن الثورة الجزائرية، هي التي أثرت في فانون حتى في هذا الموضوع.

لم تكن مقالات فانون في اليسار الفرنسي، تعكس تطور العلاقة بين فانون واليسار، ولكنها في المقابل، كانت تعكس علاقة اليسار، ونظرته إلى الثورة متخوفا من تطوراتها، كما تعكس تطور الخط الفكري عند فانون، وانفعاله بالثورة الجزائرية. تلك هي الحقيقة التي ينبغي أن نفهمها، إذا أردنا استجلاء مدى تأثير الثورة الجزائرية في فانون، وتكييف نظرته تجاه اليسار، والدليل على ذلك، عدم استيعاب فانون تردد اليسار وميوعته، وتأخره في الاندماج بالثورة مثلما فعل هو، وهذا ما أشارت إليه سيمون دي بوفوار في مذكراتها على لسان فانون المعاتب لسارتر، على عدم تطهير نفسه من الفرنسة، وكان يقول له: «لنا عليكم حقوق، فكيف تستطيعون أن تستمروا في حياة عادية، وتكتبون؟.»

وتقول دي بوفوار: «كان فانون يطلب أحيانا من سارتر أن يقوم بعمل فعال (لفائدة الجزائر) وكان يطلب منه أحيانا أخرى أن يختار الاستشهاد... أو على الأقل فليدخل سارتر إلى السجن حتى يتسبب في فضيحة وطنية...»[9].

إن مقارنة موقف فانون من الكيان الجزائري سنة 1958م، ومواقفه السابقة التي ينكر فيها كل ماض وكل دور للماضي، تبرز لنا مدى تبني فانون لنظرية الثورة الجزائرية، وتقبله لها كلية، فقد كتب مقالا بعنوان (الاستقلال وزوال الاستعمار)، نشر في المجاهد بتاريخ أفريل 1958م، ينص على التجديد الذي أحدثته الثورة الجزائرية، في مجرى حركات التحرر الوطني، ويتعرض فيه لدحض حجة إيجابية الاستعمار، وقد جاء في هذا المقال ما يلي: «إن الثورة الجزائرية قد أدخلت عنصرا جديدا في دور معارك التحرير في فضح الاستعمار فضيحة كبرى، فالاستعمار بصفة عامة استطاع أن يحافظ على نفسه كقيمة وكحقيقة، في الوقت الذي ينكره التاريخ، وتنكره الإرادة الوطنية، فليس صحيحا أن فرنسا قد حققت عملا جميلا، عندما جعلت من الجزائر ما هي عليه اليوم...»[10].

ومن الجدير بالذكر هنا، أن الثورة الجزائرية المسلحة، قد أدخلت تعديلا أساسيا، على فكرة الكيان الجزائري والأمة الجزائرية لصالح النظرية الوطنية، فالتغيير الذي نلمسه عند فانون في هذه القضية بالذات، كان من فِعْلِ هذه الثورة. على أن تأثير الثورة الجزائرية في هذه القضية، لم يقتصر على فانون وحده، بل امتد حتى إلى الشيوعيين الذين اعترفوا في سنة 1958م، بخطأ نظرية موريس توريز (الأمة الجزائرية بصدد التكوين)، أو مثيلاتها الخداعة من قبيل: (الجزائر الجديدة)، و(الحادث الفريد في التاريخ)، هذه الأولى التي تجعل من هضم الأقلية الأوربية واندماجها في المجتمع الجزائري، شرطا مسبقا لتكوين الأمة الجزائرية.

إن الدارس الموضوعي لكتابات فانون، بإمكانه أن يقسمها إلى عهدين منفصلين عن بعضهما في تفكيره، عهد ما قبل الثورة الجزائرية، وعهد الثورة الجزائرية، وهذا العهد الثاني، يمكن تقسيمه هو الآخر إلى ثلاثة أقسام أو مراحل متميزة:

أ- مرحلة التعرف على الثورة الجزائرية.

ب- مرحلة الاندماج في الثورة الجزائرية.

جـ- مرحلة التفكير في نوع من الأممية على مستوى العالم الثالث.

يعكس مقال (عنصرية وثقافة)، المعد للإلقاء في مؤتمر الكتاب والفنانين الزنوج، الذي انعقد بباريس في سبتمبر من سنة 1956م، والذي نُشِرَ بعد ذلك، في مجموعة (من أجل ثورة إفريقيا)، المرحلة الأولى من كتابات فانون، وهو يمثل بداية تحول جديد في نظرة فانون، إلى الثقافة الوطنية والقيم المنبثقة عنها، يقول فانون: «إن هذه المواقف المتبقية (مواقف العنصرية)، في طريقها إلى الزوال. فهذه العنصرية التي تظهر في مظهر العقلانية، والحتمية الوراثية، والمظهرية، تتحول إلى عنصرية ثقافية، ويصبح موضوع العنصرية، ليس هو الإنسان الخاص، ولكن هو نمط وجوده، وتلتحق "القيم الغربية"، بالدعوة الشهيرة إلى حرب الصليب ضد الهلال.». وتعكس هذه المرحلة أيضا، رسالة الاستقالة من منصبه في مستشفى الأمراض العقلية بالبليدة، والتي وجهها إلى الوزير المقيم روبير لاكوست سنة 1956م، فهذه الرسالة تؤكد اكتشاف فانون للشعب الجزائري ووجوده المتميز، وما أحداث الجزائر، إلا نتيجة منطقية لمحاولة فاشلة، تهدف إلى محو شخصية شعب، يقول فانون: «إن مهمة التنظيم الاجتماعي، هي إقامة مؤسسات يحركها الاهتمام بالإنسان، فالمجتمع الذي يدفع أفراده إلى حلول اليأس، هو مجتمع لا تمكن الحياة فيه، هو مجتمع مدعو إلى أن يعوض بغيره.».

ويمكن القول بأن موقف فانون في هذه المرحلة، لا يكاد يختلف عن موقف الأوربيين الأحرار، الذين رفضوا أساليب الاستعمار، وأدانوا دون أن يتبنوا كلية مواقف الثورة الجزائرية، على أن فانون لم ينفك أن انفصل عن خط الليبراليين الفرنسيين، ليتخلى عن موقف الحياد، ويلتحق بصفوف المناضلين الجزائريين، متبنيا قضيتهم، مدافعا عنها بكل ما يملك، ويمكن أن نتبين خط التطور هذا، من تتبع كتاباته خلال سنة 1956م وسنة 1957م، فإذا كانت رسالة استقالته إلى لاكوست، تكشف عن فانون الليبرالي، فإن بعض مقالاته في (المقاومة الجزائرية)، وفي (المجاهد)، تكشف عن بعض العوامل، التي دفعته إلى الانضمام الكلي والمطلق للثورة الجزائرية، كنزعته الإنسانية، التي دفعته لاحتضان قضية الإنسان في الجزائر، وموقفه من التمييز العنصري، الذي لمسه وعايشه جراء معاملة الفرنسيين للجزائريين، بحكم عمله في الجزائر (رئيس مصلحة في مستشفى الأمراض العقلية).

لم تدم المرحلة الأولى من العهد الثاني طويلا، فسرعان ما انتقل فانون منها، إلى مرحلة الاندماج الكلي في الثورة الجزائرية، وقد تركت لنا هذه المرحلة، كتابات عديدة وهامة، على رأسها: (العام الخامس للثورة الجزائرية)، أو (سوسيولوجية الثورة)، ومقالات (المقاومة الجزائرية)، و(المجاهد)، التي جُمِعَتْ فيما بعد، وشكلت القسم الأكبر من كتاب (من أجل ثورة إفريقيا). أما كتاب (العام الخامس للثورة الجزائرية)، فقد كان نتيجة لاجتماع أمرين: الملاحظات التي سجلها فانون، بشأن بعض العادات والتقاليد الجزائرية، التي أتيح له أن يرى بعض مظاهرها، والنظرة التي تشكلت عنده، بعد اندماجه الفعلي في الثورة الجزائرية.

يظهر فانون في (العام الخامس للثورة الجزائرية)، أكثر جذرية من فانون (عنصرية وثقافة)، و(رسالة إلى المقيم العام)، لأن النظرة التي تشكلت عنده، بعد انخراطه الكامل في صفوف الثورة، قد لونت مشاهداته وملاحظاته، بلون جديد أكثر جزائرية، فهو في الفصل الأول من الكتاب، يتعرض لشرح التقنية التي يعمد إليها الاستعمار الفرنسي، لتمزيق المجتمع الجزائري، والقضاء على شخصيته المعنوية، ويعبئ لأجلها أغزر موارده، وأكثرها تنوعا، وهذا الفصل يُظْهِرُ لنا، مدى تفطن فانون للمحاولات الاستعمارية، الرامية إلى هضم المرأة الجزائرية، ودمجها في المجتمع الأوربي، بدءا بنزع الحجاب عنها، هذا الأخير الذي يمثل جزءا من تقاليد الملبس في المجتمع الجزائري، ولم يكن موقف كهذا، نتيجة حدس طارئ، بل إن الأخصائيين في المسائل التي تدعى بمسائل السكان الأصليين، والمسؤولين في الدوائر المختصة بالعرب، قد نسقوا عملهم بالاستناد إلى تحليلات علماء الاجتماع، وعلماء السلالات، تبعا لمقولتهم: "لنعمل على أن تكون النساء معنا وسائر الشعب سوف يتبع" ، وبناء على هذا، قامت الإدارة الاستعمارية بوضع نظرية سياسية محددة، مفادها أنه إذا أراد ضرب المجتمع الجزائري في صميم بنيته، وفي قدراته على المقاومة، فيجب عليه قبل كل شيء، كسب النساء، ويجب عليه السعي للبحث عنهن خلف الحجاب، حيث يتوارين، وفي المنازل حيث يخفيهن الرجل، وبعد طرح الفكرة القائلة، إن المرأة تكون محور المجتمع الجزائري، يصار إلى بذل جميع الجهود لاحتوائها، لأن تحول المرأة وكسبها إلى جانب القيم الأجنبية، وانتزاعها من نظام حياتها الخاص، هو الحصول في

آن واحد على سلطة حقيقية على الرجل، وامتلاك الوسائل العملية، المؤثرة، لمتابعة تفتيت الثقافة الجزائرية[11].

إن عملية ترويض المجتمع الجزائري، جرت بمعونة النساء السافرات، المعاونات للمحتل، من معلمات، وراهبات (أخوات مسيحيات)، على مستوى مدارس "الفتيات المسلمات"، التي تضاعفت سنة 1959م أكثر من ذي قبل، يتم الاتصال أولا بالأمهات، وتحاصرن، وتوكل إليهن مهمة التأثير على الأب وإقناعه، ويطنب في امتداح ذكاء التلميذة الشابة ونضجها، ويصار إلى إبراز المستقبل الباهر الذي ينتظرها، ويلفت الانتباه إلى أن انقطاعها عن الدراسة، إجرام بحقها، وهنا لا تترددن في التسليم بمساوئ المجتمع الأوربي –من باب المناورة– وتقترحن النظام الداخلي، لكي يفسح المجال أمام أهلها، لتجنب انتقادات الجيران "ضيقي الأفق" [12].

إن تحليل فانون لميكانيزم الاستعمار، من أجل تفتيت الشخصية الوطنية، والقضاء عليها من الداخل بواسطة المرأة، اكتشاف فذ وخطير في ذات الوقت، على أن الوعي بهذه الخطورة، نجده واضحا في بعض الكتابات الجزائرية، قبل اندلاع ثورة نوفمبر 1954م، حتى أن ابن باديس، كان ألقى في شهر أوت من سنة 1929م، محاضرة بالجزائر العاصمة، بدعوة من "نادي الترقي"، خصصها لموضوع تعلم الرجل والمرأة في الجزائر، فضح فيها حقيقة الدعوة، إلى تعليم المرأة الجزائرية في المدارس الفرنسية، وقد لخص محاضرته تلك، ونشرها في عدد مجلة الشهاب، الصادر في نوفمبر 1929م، وقد بدأ مقاله بتخيل رجل مسلم جزائري، يقف أمامه ببرنوسه، ويخاطبه بشدة، قائلا: «أنتم تفكرون في تعليم المرأة فلمن تعلمونها؟ لي أنا الرجل الجاهل، ليقع لها ما يقع للعالم الضعيف المغلوب، من الجاهل القوي الغالب، ومن يعلمها؟ أنا الجاهل... إذا أردتم التفكير الصحيح والإصلاح المنتج، ففكروا في قبلها، فأنا أبوها، وزوجها، ووليها، ومصدر خيرها وشرها. وإذا أردتم إصلاحها الحقيقي، فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها، قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها.»[13].

إن اكتشاف فانون لدور المرأة الجزائرية، في الحفاظ على مقومات الشعب، كان موضوع محاضرة قدمها الشيخ ابن باديس، عندما كان عمر فانون لا يتجاوز الأربع سنوات، و هذا ليس

انتقاصا من قيمة فانون الفكرية أو اكتشافه، ولكنها إضاءة جديدة، تساعدنا على استجلاء بعض مظاهر التأثير، الذي أحدثته الثورة الجزائرية في تفكير هذا المناضل، وهو تأثير يرجع –خاصة في هذه المرحلة من مراحل تطور فانون الفكري وهي مرحلة الاندماج في الثورة– إلى أن فانون اندمج في هذه الثورة، عندما بلغت مرحلة من النضج والتطور، وأصبح فيها كل شيء واضحا، والماضي نفسه، أصبح أوضح من السابق، على ضوء الانجازات التي حققتها هذه الثورة.

كانت التغيرات الاجتماعية، والانتصارات السياسية، التي حققتها الثورة في ظرف قصير نسبيا، ملفتا لنظر كثيرين، إلى أهمية الدور الذي أدته المرأة الجزائرية، في الحفاظ على الشخصية الوطنية، وقد ازداد وضوح هذا الدور، بفعل المواقف البطولية التي وقفتها المرأة الجزائرية، خلال حرب التحرير، فقد سمع فانون غير ما مرة، قصص البطولات النسائية التي سجلتها الثورة الجزائرية، مثل قصة المرأة، التي استشهد ابنها في معركة، فدعيت للتعرف على جثته، فما كان منها –عندما عرفت أنه ابنها– إلا أن زغردت، فرحا بأنها أنجبت ابنا عرف كيف يموت في سبيل الوطن[14].

ومهما يكن من أمر، فإن فانون لم يخطئ في تقدير دور المرأة الجزائرية، في الحفاظ على الشخصية الوطنية، وهذا التقدير يتلاءم إجمالا، مع وجهة النظر التي ما فتئت الأوساط الوطنية الجزائرية تدافع عنها. إذن، اكتشاف دور المرأة الجزائرية، واكتشاف دور الثقافة الوطنية، في الحفاظ على كيان الشعب الجزائري، يمثلان مظاهر تأثير الثورة الجزائرية في فرانز فانون.

في الفصل الثاني من كتاب (العام الخامس للثورة الجزائرية)، يعالج فانون قضية جد حساسة، هي وسائل الاتصال بين المستعمِر والمستعمَر آنذاك، ويختار من جملة وسائل الاتصال المتوفرة حينئذ، جهاز الراديو، هذا الجهاز الذي يعد أداة تقنية بالمعنى الضيق، تنمي القدرات الحسية، والفكرية، والعضلية في مجتمع ما. وجهاز الراديو في «الجزائر المحتلة، هو تكنيك المحتل، هو إطار السيطرة الاستعمارية، لا تلبي أية حاجة معنوية لدى "المواطن الأصلي". ذلك أن جهاز الراديو، كرمز للوجود الاستعماري، كجهاز مادي داخل في الشكل الاستعماري... إن البلاغات التي تذاع من راديو

الجزائر، تلتقط من الممثلين الوحيدين للسلطة في الجزائر، ومن مواطني القوة المسيطرة وحدهم، وتبدو بشكل سحري، أنها تتجنب أعضاء المجتمع من "السكان الأصليين".»[15]

وهكذا، وجد الجزائري نفسه مجبرا، على اقتناء مصادر خاصة به للاستعلام، من الشهور الأولى للثورة، بهدف حماية ذاته، وتجنبا لما اعتبره مناورات كاذبة من المحتل، وتتخذ هذه الضرورة صفة الأمر الملحّ، عندما يعلم الشعب، أن هناك جزائريين يُقَدِّمُونَ كل يوم من القاهرة، سجلا بكفاح التحرير، «أما التحول الحقيقي، فقد حدث في آخر عام 1956م، إذ وُزِّعَتْ، فعلا، في هذا الوقت، منشورات تنبئ بوجود صوت الجزائر الحرة، حُدِّدَتْ فيها ساعات الاستماع، وأطوال موجة البث. وهذا الصوت "الذي يتكلم من الجبال"، وغير محدد المكان جغرافيا، ولكنه ينقل بلاغ الثورة العظيم إلى الجزائر كلها، يكتسب دفعة واحدة قيمة جوهرية.»[16]

على قدر ما كان حماس فانون شديدا، وتعلقه بالثورة الجزائرية أشد، على قدر ما تقبلته الجزائر الثائرة بصدر رحب، وبوأته مسؤوليات متعددة، محررا في (المقاومة الجزائرية)، ثم في (المجاهد)، وممثلا للثورة في المنتديات الدولية، يحمل رسالة دبلوماسييها، ومتصلا بممثلي الحركات التحررية في إفريقيا، إلى آخر المهام التي تعبر عن الثقة، التي وضعتها فيه هذه الثورة وصناعها.

وإذا كانت الفترة الأولى لاشتغاله في صفوف الثورة، قد مكنته من اكتشافات هامة، مثل اكتشافه لدور الثقافة الوطنية، ودور التاريخ، وأهمية الماضي، في صنع صمود الشعب ضد محاولات المسخ والتشويه، فقد مكنته الاتصالات بالخارج عبر الثورة الجزائرية، من اكتشاف جوانب جديدة، سرعان ما ظهرت آثارها في كتابات فانون الأخيرة، فآخر ما كتبه فانون وهو (معذبو الأرض) سنة 1961م، يسجل بوضوح تطور فكره إلى مرحلة جديدة، يصطلح على تسميتها بـ: الأممية على مستوى العالم الثالث.

يبدو للبعض أن هذا التطور، قد ابتعد بفانون عن الثورة الجزائرية، التي كانت ثورة وطنية قبل كل شيء، وقد يبدو أيضا أن تأثير الثورة الجزائرية على تفكير فانون في هذه المرحلة، كان قاصرا على تمكينه من تلك الاتصالات مع المحيط الخارجي. والواقع، أن الثورة الجزائرية كانت أبعد ما تكون عن

المحلية الضيقة الأفق، وكان المناضل الجزائري خلال حرب التحرير، متفتحا وواعيا بكل ما يجري حوله، ويتصل بقضايا الحرية والتحرير في العالم قريبا وبعيدا.

لقد أتيح لفانون، سواء أثناء مساهمته في تحرير (المجاهد)، أو خلال قيامه بالمهام السياسية، والاتصالات الدبلوماسية التي أسندت إليه، أن يلمس عن كثب تلك الخطوط الفاعلة، التي جعلت الثورة الجزائرية، ترتقي إلى درجة التجربة الأصيلة، التي يتجاوز إشعاعها المحيط المحلي إلى محيط العالم الثالث، كما أتيح له أن يتبين من الداخل، مختلف أوجه الصراع الذي تواجه الثورة الجزائرية، وسرعان ما أدرك ببصيرته النافذة، ووعيه العميق، الدروس التي يمكن استخلاصها من التجربة الجزائرية، وتقديمها للعالم الثالث، كي يستفيد منها في صراعه ضد الاستعمار القديم.

لقد لمس فانون في خضم الثورة الجزائرية المسلحة، حقيقة الصراع بين الاستعمار الفرنسي وبين الشعب الجزائري، فقد بات واضحا بعد إعلان ديغول لتقرير المصير في الجزائر سنة 1959م، أن الصراع قد تخطى حدود مواجهة الاستعمار القديم، ليواجه ألاعيب الاستعمار الجديد، وسعيه إلى أن يحقق أكبر كسب ممكن من انهزام الاستعمار القديم، وعلى ضوء هذه التجربة الثورية، بدت كثير من الحقائق كانت خافية عليه، وتأكد أن وسيلة التفاوض عندما لا تستند إلى قوة ثورية حقيقية، مصممة على تحقيق أهداف واضحة، قد تتسبب للشعب في متاعب أخطر من متاعب الحرب نفسها.

إن المرحلة التي بلغها تفكير فانون في نهاية حياته، والتي يمثلها كتابه (معذبو الأرض)، كانت نتيجة حتمية لاحتكاكه بالثورة الجزائرية، ونتيجة ملاحظاته لما كان يجري داخلها وحولها، من تحولات وصراعات، ويمكن أن نتبين مدى تأثر فانون بالثورة الجزائرية في هذه المرحلة، باستعراض بعض القضايا التي أثارها في آخر ما كتب، ففي معرض حديثه عن طبقة الفلاحين، ودورها في معركة التحرير، يقول: «إن الدعاية التي تتقدم بها معظم الأحزاب السياسية، تغفل طبقة الفلاحين دائما، مع أن الواضح أن طبقة الفلاحين في البلاد المستعمرة، هي الطبقة الثورية الوحيدة. إن هذه الطبقة، لا تخشى أن تفسر بالثورة شيئا، بل تطمع أن تكسب بالثورة كل شيء. والفلاح، المنبوذ، الجائع، هو الإنسان المستغل، الذي يكتشف قبل غيره، أن العنف وحده هو الوسيلة المجدية. إنه امرؤ ليس عنده حل

وسط، ولا مجال عنده لتسوية، والقوة وحدها، هي التي تحدد في رأيه، بقاء الاستعمار أو زواله. إن هذا المستغل، يدرك أن تحرره، يقتضي استعمال جميع الوسائل، وأولها القوة.»[17].

إن تأثير المثال الجزائري هنا واضح، فقد كان فانون يكتب، وهو يستعرض التضحيات الجسام لجماهير الفلاحين في الريف الجزائري، كان يكتب مستحضرا ما كان ينقله المجاهدون، الذين يتخطون الأسلاك المكهربة، إلى هيئات الثورة في الخارج، عن كيفية دوران المعارك، وما كانوا يقدمونه، من صور الحياة اليومية في الريف الجزائري، وكيف أن ثقل المعارك، كان يقع على عاتق الجماهير في الريف.

إن مناضلي الأحزاب الذين فقدوا الشرعية، نتيجة رفضهم لكل محاولات الاستعمار الاستعطافية، يجدون أنفسهم مضطرين، «... إلى ترك المدن نهائيا، وإلى الابتعاد عن أمكنة الصراع السياسي، ماضين إلى الأرياف، إلى الجبال، إلى جماهير الفلاحين. والفلاحون، في مرحلة أولى، يحتضنونهم، فيخفونهم عن أعين رجال الشرطة. والمناضل الوطني الذي يقرر أن يهجر لعبة التخفي، التي كان يلعبها مع الشرطة في المدن، وأن يربط مصيره بمصير جماهير الفلاحين، لا يخسر أبدا.»18.

4.خاتمة:

لقد جذبت الثورة التحريرية الجزائرية فانون نحوها، وأخرجته من الفكر الفرنسي الذي ترعرع فيه، بقوة رجالها، ومهندسيها، وصمود شعبها، ووضوح طريقها، وأهدافها المرسومة، لتقذف به في قلب الفكر الجزائري، بآلامه، وآماله، هذا الفكر الذي حرره نهائيا، من توجهات اليسار الفرنسي، وبصره بحقيقة الصراع الدائر في الجزائر، وكشف له عن حقائق جديدة تتصل بإفريقيا، وفي الوقت نفسه، تكشفت له حقائق أخرى، اتصلت بالعالم الثالث، الذي يشمل –فيما يشمل– مسقط رأسه في جزر الأنتيل.

5. الهوامش:

[i]. يُنظر، بيير بوفيي، فانون، المطبوعات الجامعية، باريس، 1971م، ص 15.

[2] فرانز فانون، من أجل ثورة إفريقيا، الطبعة الفرنسية، ص 31 وما بعدها.

[3] فرانز فانون. بشرة سوداء، أقنعة بيضاء. ص 111.

[4] المصدر نفسه، ص 113.

[5] م نفسه، ص 183.

[6] م ن، ص 184.

[7] هذه المقالات، موجودة ضمن مجموعة: من أجل إفريقيا، من الصفحة 85 إلى الصفحة 99، من الطبعة الفرنسية.

[8] نشرت المجاهد هذين المقالين، في عددها العاشر، الصادر بتاريخ سبتمبر 1957م.

[9] نص أوردته، مجلته الصادرة بتاريخ فبراير 1965م، ص 77.

[10] يُنظر، مُحَمَّد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010م، ص 110.

[11] يُنظر، فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ترجمة: ذوقان قرقوط، منشورات آنيب ودار الفارابي، الجزائر/ لبنان، ط1، 2004م، ص 26-27.

[12] يُنظر، المصدر نفسه، ص 28.

[13] لقد أشار فرانز فانون، في كتابه (العام الخامس للثورة الجزائرية)، إلى جذور معركة الحجاب، وقال في الصفحة 25 منه، إنها تعود إلى سنوات 1930م-1935م.

[14] يُنظر، مُحَمَّد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، ص 141.

[15] فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ص 69-70.

[16] المصدر نفسه، ص 81.

[17] فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، منشورات ANEP، الجزائر، 2004م، ص 53-54.

[18] المصدر نفسه، ص 131.

6 – قائمة المصادر والمراجع:

1- بيير بوفيي، فانون، المطبوعات الجامعية، باريس، 1971م.

2- فرانز فانون. بشرة سوداء، أقنعة بيضاء. دار الفارابي. لبنان. 2004م.

3- العام الخامس للثورة الجزائرية، ترجمة: ذوقان قرقوط، منشورات آنيب ودار الفارابي، الجزائر/لبنان، 2004م.

4- لأجل الثورة الإفريقية، ترجمة وتحقيق: ماريا طوق وداليا طوق، دار الفارابي، 2004م.

5- معذبو الأرض، ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، منشورات ANEP، الجزائر، 2004م.
6- مُحَمَّد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010م.